ISSN : 2353 – 0030
EISSN: 2602-697X
مجلة أبعاد
مجلد 08، العدد 02، 2021

التاريخية المفهوم الملتبس - نصر حامد أبو زيد

The historical ambiguous concept – Nasr Hamid Abu Zayd

بختي أمينة[1]* أ.د. مخلوف سيد أحمد[2]
Bekhti1989@hotmail.com Makphilos@yahoo.fr
[1] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة سيدي بلعباس– الجزائر
[2] كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية– جامعة سيدي بلعباس– الجزائر

****

تاريخ الإرسال: 2021/04/28	تاريخ القبول: 2021/05/21	تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:
إن مفهوم التاريخية في الفكر الإسلامي ارتبط بالنص المقدس من خلال ربط النص القرآني بالواقع والزمان، والمكان إلاّ أن هذا المفهوم صاحبه الكثير من اللبس عند المفكر المصري نصر حامد أبو زيد (1943-2010)، وعليه جاءت هذه الدراسة الموسومة (التاريخية المفهوم الملتبس - نصر حامد ابو زيد) محاولة لرفع هذا اللّبس وتوضيح لهذا المفهوم عند هذا المفكّر الذي يقر أن قوله بتاريخية النص لا يعني مطلقا زمنيته ولا هو إنكار لألوهيته بل التاريخية التي قصدها هي أن القرآن نزل في التاريخ ما يجعله يتفاعل معه وفي محاولته للتأسيس لمفهوم التاريخية وإثبات البعد التاريخي للنص القرآني تطرق إلى ثلاث عناصر متعلقة بعلوم القرآن وهي المكي والمدني، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، على اعتبار أنها ثلاث نقاط تثبت تاريخية النص القرآني ليس عنده فحسب بل باتفاق المفكرين المعاصرين.

الكلمات المفتاحية: التاريخية؛ النص القرآني؛ المكي والمدني؛ أسباب النزول؛ الناسخ والمنسوخ.

Abstract : The concept of historicism in islamic thought was linked to the sacred text by linking the meaning of the Qur'an text to reality, time and place. However, this concept is accompanied by lot of confusion among the Egyptian thinker Nasr Hamid Abu Zaid (1943-2010), and accordingly this study tagged with (the historical ambiguous concept - Nasr Hamid Aby Zaid) came as an attempt to lift this confusion and clarify this concept for this thinker who admits that his saying with the history of the text does not mean at all its time nor is it a denial of its deity. Rather the historical one he intended is that the Qur'an was

* المؤلف المراسل: Bekhti1989@hotmail.com

descended in history and prove the historical dimension of the Qur'an text, he touched upon there elements related to the sciences of the Qur'an, namely the Meccan and Medinan, the causes of revelation, the copyist and the abrogated one, considering that they are three points that show history of the Qur'an text not only with him, but with the agreement of thinkers.

Keywords : Historical ; Quranic text; Meccan and Medinan; Reasons for descent; the copyist and the abrogated one.

1. مقدمة:

إنَّ تبني المفكرين المعاصرين المنهج التاريخي أو التاريخاني في دراسة النص القرآني كان نتيجة تأثرهم بمناهج الغربيين الفلسفية على اختلافها، ذلك أن الغرب المسيحيين أخضعوا الكتاب المقدس للمنهج التاريخي الأمر الذي أدى ببعض الحداثيين إلى اخضاع القرآن الكريم إلى نفس المنهج.

ومن أبرز رواد القراءة التاريخية للقرآن الكريم في الفكر العربي نجد محمد أركون، محمد عابد الجابري، الطيب التيزيني وغيرهم، إلاّ أنه لا يمكن الحديث عن التاريخانية دون التطرق إلى رائدها نصر حامد أبو زيد، فهو من أهم الأسماء التي لا يمكن تجاوزها عند الحديث عن التاريخانية، إلا أنَّ هذا المفهوم عند هذا المفكر صاحبه الكثير من اللبس والغاية من وراء هذه الدراسة هي محاولة رفع هذا اللبس، فما هو شائع أن غاية التاريخانية هي نزع القداسة على النص القرآني من خلال اخضاعه لقراءة نقدية تاريخية ليس هذا فحسب، بل إنّها تهدف أيضا إلى تجاوز الأحكام والتشريعات التي وردت في القرآن الكريم على أساس أنها احكام غير صالحة لكل زمان ومكان ما يستوجب تجاوزها لأنّها نابعة انطلاقا من واقع معين ما يجعلها صالحة فقط لذلك الواقع أو العصر بما يحمله من شروط ثقافية وتاريخية ومعرفية، وعلى هذا حمل أبو زيد على عاتقه مهمة الكشف عن هذا المفهوم -التاريخية- وتجلى ذلك من خلال كتابه مفهوم النص الذي وضح فيه قراءته التاريخية للنص القرآني، فلا يخفى علينا انّ مفهوم التاريخية ارتبط بالنص المقدس (القرآن الكريم) وعلى هذا الأساس يتم ربط النص القرآني بالواقع والزمان والمكان من خلال اخضاعه للمنهج التاريخي، ذلك أنّ الغاية التي كان ينشدها أبو زيد هي محاولة إعادة قراءة النص القرآني قراءة تتماشى مع واقعنا وزماننا، إذن استمرارية النص من وجهة نظره قائمة على تأويله.

وعليه، الإشكال المطروح: ما الذي قصده أبو زيد بالتاريخانية؟ وكيف أثبت البعد التاريخي للنص القرآني؟

2. التاريخانية عند أبو زيد:

يرى أبو زيد أن تاريخية النص هي التي تمككنا من فهم النص وسبر أغواره واكتشاف خباياه عكس ما ذهب إليه البعض كما أسلفنا من أن التاريخانية تحول النص إلى نص نسبي غير صالح لكل زمان ومكان، ليس هذا فحسب بل هي تنزع عنه صفة القداسة وتبعده عن مصدره الإلهي.[1]

فعلماء الإسلام القائلين بعدم تدخل البعد التاريخي في الدين لا يستطيعون التمييز بين الإسلام كرسالة سماوية والإنسان، هذا الاخير متطور ومتغير ضمن سياق تاريخي اجتماعي، هذا ما نتج عنه رؤية ثنائية للإسلام، هذا ما نلمسه جليا في رأي أبو الأعلى المودودي (1903-1979) مؤسس الجماعة الإسلامية بباكستان الذي حصر الإسلام النقي والحقيقي في عهد الصحابة والخلفاء الراشدين ولكن بعد ذلك تلوث وفسد بسبب التدخل الأجنبي، فالتاريخ الإسلامي بأكمله فاسد من وجهة نظره، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن المودودي أهمل حقيقة أساسية وهي أنّ الدين ظاهرة تاريخية متطورة وبالتالي أمر بديهي أن يتطور عبر الزمن.[2]

إذن المقصود بالقراءة التاريخية للنص القرآني هي قراءة مبنية على أساس ربط الآيات بظروف نشأتها وبيئتها، ويعرفها أبو زيد في كتابه النص-السلطة-الحقيقة - بأنها: "لحظة الفصل بين الوجود المطلق والمتعالي- الوجود الإلهي- والوجود المشروط الزماني"[3].

يرى أبو زيد انطلاقا من هذا التعريف أن تفسير القرآن يجب أن يكون انطلاقا من التاريخ والمناخ الثقافي، وهذا ما وضحه من خلال السؤال الذي طرحه: كيف يتشكل معنى الإسلام بالنسبة لأفراد الأمّة؟

---

[1] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 2000، ص 23.

[2] أبو زيد، نصر حامد ونيلسون، استر، صوت من المنفى تأملات في الإسلام، ترجمة: نهى هادي، الكتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2015، ص 170.

[3] أبو زيد، نصر حامد، النص، السلطة الحقيقة - الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 1995، ص 71.

يرى أبو زيد أنه لكي يبقى الدين محافظا على مكانته يجب أن يتقبل المسلمون فكرة إعادة تفسيره انطلاقا من أوضاعهم الراهنة واحتياجاتهم لأنّ الحياة في تعبير مستمر ولا يمكن ان نعتبر حلول مشاكل الماضي ملائمة للحاضر.[1]

إذن النص يكتسب مصداقية انطلاقا من الثقافة وهذا تجلى في قوله: "وفي منهج تحليل النصوص تنبع مصداقية النص من دوره في الثقافة، فما ترفضه الثقافة وتنفيه لا يقع في دائرة النصوص، وما تتلقاه الثقافة بوصفه نصاً دالاً فهو كذلك، وقد يختلف اتجاه الثقافة في اختيار النصوص من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى، فتنفي ما سبق لها وأن تقبلته أو تتقبل ما سبق لها وأن نفته من النصوص".[2]

إذن ما يمكن أن نلمسه من هذا القول أنّ النص يتأثر بالتغيرات التي تطرأ على المجتمع بما أنه نص بشري يندرج ضمن حيّز ثقافي، هذا ما يجعل حكمنا عليه يتغير فما كان مستحبا قد يصبح مستهجنا، لكل هل هذا ينطبق على النص القرآني، أم أن أبو زيد استثنى هذا الأخير على اعتبار أنه نص إلهي؟

يرى أبو زيد أن النص القرآني شأنه شان النصوص البشرية الأخرى لأنّه ينتمي إلى ثقافة معينة فهو نص ثقافي وبالتالي فإن القرآن بوصفه نصا يكتسب أيضا مصداقيته من الإطار الثقافي الذي وجد فيه.

بما أنّ النص القرآني هو نص لغوي ينتمي إلى ثقافة معينة، فما هو المنهج الأنسب لتحليل هذا النص يتساءل أبو زيد؟ يظهر جليا أن أبو زيد يتبع المنهج اللغوي ولكن السؤال الذي يستوقفنا هنا هو كيف نوظف هذا المنهج اللغوي على اعتباره انه منهج بشري يتمتع بخصوصيات بشرية على نص إلهي؟

يجيب أبو زيد على هذا السؤال ويفصل فيه، فهو يرى أنّ هذا ممكن لأن الله سبحانه وتعالى كلامه كان موجه لبشر فاستعمل لغتهم، وعلى هذا الأساس فهو يقر أن المنهج الأمثل لفهم الرسالة وفهم الإسلام هو منهج التحليل اللغوي، هذا المنهج الإنساني، ذلك أن الكلام الإلهي تحلى في إطار نظام ثقافي ولا يمكن تحليل معطياته إلاّ ضمن هذا الإطار.[3]

[1] أبو زيد، نصر حامد ونيلسون، استر، صوت من المنفى تأملات في الإسلام، مصدر سابق، ص 170-171.
[2] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 27.
[3] المصدر نفسه، ص 27.

وهنا يؤكد أبو زيد على أن الفكر الذي يتعامل مع النص بمعزل عن التاريخ لا يرتقي إلى مكانة الفكر فهو فكر سلبي عكس الفكر الإيجابي الذي يتعامل مع النص انطلاقا من حقائق العصر الذي ينتمي إليه بالتحليل والتفسير والتقويم وعليه يقف على عناصر التقدم متجاوزا عناصر التخلف وهذا ما يبرر تفرقته الدائمة بين الفكر الديني والدين، هذا الأخير الذي حصره في جملة النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا أما الفكر الديني فلا يكاد يخرج عن نطاق فهم هذه النصوص المقدسة وتأويلها قصد بلوغ دلالتها، إذن هو مجرد اجتهادات بشرية وهذا ما يفسر تباين واختلاف هذه الاجتهادات لا من عصر إلى عصر فقد بل حتى على مستوى البيئة الواحدة من مفكر واخر.[1]

هنا تجدر الإشارة إلى أن أبو زيد نقده لم يكن موجها للقرآن أو النص القرآني كما زعم البعض وإنما للفهم البشري، وعليه فإنّ انتقاده كان موجها للعقل الغيبي كما أسماه لا للعقل الديني، فالأول يجد تفسير لكل شيء في الإيمان بينما الثاني يسعى إلى الكشف عن الأسباب المباشرة للظواهر دون أن يتخلى عن الإيمان[2]، فعلى الرغم من أنّ الوحي ومن ثم الإسلام واقعة تاريخية إلاّ أن الخطاب الديني يهمل هذه الحقيقة من خلال فصل الإسلام عن الواقع وكذا التاريخ.[3]

وفي محاولته للتأكيد على البعد التاريخي للنص القرآني تطرق إلى قضايا متعلقة بعلوم القرآن والمعروفة بأسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، المكي والمدني ذلك أن هذه القضايا تؤكد على علاقة النص بالثقافة وهذا ما جعله يصف النص بالمنتج الثقافي فهو يرى أنه لا يمكن البحث ولا الحديث عن تاريخية النص الديني إلا من خلال إعادة النظر في علوم القرآن وهذا ما نلمسه في قوله : "إن البحث عن مفهوم النص ليس في حقيقته إلا بحثا عن ماهية القرآن"[4].

3. المكي والمدني:

[1] أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط:4، 2003، ص 197.

[2] القزني، خالد، القراءة التأويلية لدى نصر حامد أبو زيد، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الفكرية المعاصرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1435هـ، ص 17.

[3] أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مصدر سابق، ص 197.

[4] العمري، مرزق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي الغربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط:1، 2012، ص 182.

يجب العودة إلى المكي والمدني، فمن منظور أبو زيد هما مرحلتين ساعدتا في تشكيل النص، الغرض من هذه العودة هو محاولته التفرقة بين المكي والمدني لأنّ هذه التفرقة هي التي تمكن الباحث من الكشف عن حقيقة تشكل النص في الثقافة السائد فيها.

لا يخفى علينا ان القرآن لم ينزل دفعة واحدة بل استمر 23 سنة أي جاء تدريجيا، جزء منه نزل في مكة، والجزء الآخر نزل بالمدينة المنورة وعليه قسم القرآن إلى مكي ومدني.

وهنا جاءت محاولة أبو زيد للتميز بين المكي والمدني التي كان يهدف من وراءها توضيح أن النص هو نتاج التفاعل مع الواقع الحي التاريخي[1]، هذا ما جعله ينتقد علماء القرآن الذين استندوا في تأسيسهم للتفرقة بين المكي والمدني على المكان فقط اي المكان الذي نزل فيه الوحي على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحكم تنقله بين مكة والمدينة، إذن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، ليس المكان هو الوحيد الذي استندوا عليه فنجدهم أسسوا للتفرقة أيضا انطلاقا من الخطاب كيف ذلك؟ ميزوا بين الخطاب الموجه لأهل مكة (المكي) والخطاب الموجه لأهل المدينة (المدني) بحجة أن السور التي وردت فيها عبارة " يَا أَيُّهَا النَّاسُ" فإنها تخاطب أهل مكة، أمّا السور التي وردت فيها عبارة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا" فهي تخاطب أهل المدينة وهذا المعيار أيضا شانه شأن معيار المكان لا يمكن الاعتماد عليه في التفرقة بين المكي والمدني، فإذا كان معيار المكان أهمل النص شكلا ومضمونا، فإن هذا المعيار هو الآخر معيار ناقص لأنه تجاهل مخاطبات القرآن الكثيرة، كما انه حصر المخاطبين بالقرآن فقط في الناس والمؤمنين، وعليه أين تصنف السور التي لم ترد فيها هتين العبارتين في المكي أم المدني؟[2]

إذن أبو زيد يرفض الاستناد إلى معيار المكان في التفرقة بين المكي والمدني، ذلك أنّ معيار التصنيف عنده يجب أن يستند إلى الواقع من جهة وإلى النص من جهة اخرى، الاستناد إلى الواقع على اعتبار أنّ حركة النص مرتبطة ارتباطا وثيقا بحركة الواقع، والاستناد إلى النص من خلال مضمونه وبناءه.

ولتوضيح ذلك قدم أبو زيد مثال لحركة الواقع وهو حادثة الهجرة من مكة إلى المدينة، هذه الحادثة التي اعتبرها أكثر من انتقال في المكان، إذن على هذا الأساس فإن

[1] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 85.
[2] المصدر نفسه، ص 76-77.

تمييز أبو زيد وتفرقته قائمة على مرحلتين، قبل الهجرة وبعد الهجرة إلى المدينة، وعليه فإن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدني ما نزل بعد الهجرة بصرف النظر عن المكان الذين نزل فيه.[1]

أشرنا آنفا أن النص نتاج الواقع من منظور أبو زيد فالعلاقة بين النص والواقع علاقةمتينة إذا ما نظرنا إيها من زاوية تاريخية، ما جعل أبو زيد يبحث بجدية عن معايير تمكننا من التفرقة بين المكي والمدني، وعلى الرغم من اقراره بأن هذا الأمر يظل أمرا اجتهاديا إلاّ أنه حمل على عاتقه مهمة البحث والتنقيب عن معايير جادة حاول من خلالها تبرير موقفه تمثلت في معيار الأسلوب او كما أسماها الخصائص الأسلوبية من بين هذه الخصائص طول وقصر الآيات والسور التي نزلت على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إذ ما نزل في مكة يدرج ضمن الآيات والسور القصار مثل الكوثر، الفلق... إلخ، أمّا ما نزل في المدينة فيدرج ضمن السور والآيات الطوال.[2]

كما أن أبو زيد ميز بين مرحلتين المرحلة الأولى هي مرحلة ما قبل الهجرة والمرحلة الثانية وهي المرحلة المدنية ووضح أن لكل مرحلة أسلوبها الخاص ذلك أنّ غاية الآيات القصيرة التي نزلت في مكة هي التأثير إذ اعتبرت هذه المرحلة مرحلة انذار ما جعل اللّغة المعتمدة فيها تحمل أسلوبا مركزا على عكس المرحلة الثانية (المدنية) التي تجاوزت التأثير ما جعلها تعتمد لغة مغايرة سواء على مستوى التركيب أو على مستوى البناء. على اعتبار أن هذه المرحلة هي مرحلة الرسالة والتبليغ ما يحيلنا إلى القول أن من خصائص الرسالة إيصال المعلومة إذ يطغى عليها النقل أكثر من التأثير، فالأسلوب هنا هو أسلوب تلقين.

ومن بين المعايير الأسلوبية يشير أبو زيد إلى معيار آخر يؤسس إلى التمييز بين المكي والمدني وهو معيار مراعاة الفاصلة، هذه الخاصية التي يعتبرها خاصية من خصائص اللّغة التأثيرية أي لغة الإنذار[3]، ما يمكن استنتاجه أن أبو زيد يجعل من الفاصلة ميزة من مميزات السور والآيات التي نزلت في مكة وعلى هذا الأساس يمكن التفرقة والتمييز بين القرآن المكي والقرآن المدني.

[1] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 77.
[2] المصدر نفسه، ص 79.
[3] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 80.

إن هذين المعيارين أو الخاصيتين السالف ذكرهما كانا الأساس الذي استند عليهما ابو زيد في التفرقة والتمييز بين المكي والمدني مؤكدا على صلة النص بالواقع مبررا ضرورة هذه العلاقة (علاقة النص بالواقع).

إذن كخلاصة فإن التمييز بين المكي والمدني من شأنه التأكيد على جدلية النص والواقع لأن هذا الأخير متغير متطور، هذا التطور هو ما يسمح لنا بتأويل النصوص وإعادة قراءتها.

4. أسباب النزول:

لقد اهتم أبو زيد بهذا العلم نظرا لأهميته خاصة من خلال كتابه مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن- الذي قدم فيه الكثير من الأمثلة التي توضح أسباب النزول، ذلك أن هذا العلم هو الذي يبين العلاقة بين النص والواقع ومن ثم هو الذي بين البعد التاريخي للنص القرآني عنده.

فالدراسات التي اهتمت بأسباب النزول تبين بشكل واضح الطابع الزمني للنص القرآني لأنّ هذا الأخير جاء نتيجة أحداث وظواهر تعرض لها المجتمع الإسلامي في زمن محدد أو بالأحرى في أوقات معينة.

يرى أبو زيد أنه لا ينبغي إهدار السياق الذي نزل فيه النص الديني والسياق هنا يقصد به جميع الظروف والملابسات التي أنزل النص متزامنا معها، وهذا الأمر هو بالغ الأهمية في فهم النص مثل أسباب النزول التي كان علماء التفسير يأخذون بها في مجال التفسير لبيان المعنى، ويعتمدها الأصوليون والفقهاء لبيان الأحكام ما يؤكد أهمية هذا العلم -أسباب النزول- وضرورته في فهم دلالة النص.[1]

لا يخفى على الجميع كما سبقت الإشارة أنفا أن النص لم ينزل دفعة واحدة بل نزل تدريجيا، أي منجما ما يستلزم أن كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت نظرا لسبب خاص استوجب إنزالها، وإن كان هناك آيات نزلت دون سبب أو دون علة فهي قليلة جدّا، وعلى هذا الأساس لا يمكن فهم الآية أو الآيات دون الرجوع إلى السبب أو المناسبة التي نزلت فيها وهذا عين ما أكده علماء القرآن من خلال إقرارهم أن المفسر لا يمكنه بلوغ دلالة النص دون معرفته بالوقائع التي أنتجته.[2]

[1] العمري، مرزق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي الغربي المعاصر، مرجع سابق، ص 184.
[2] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 97.

إذا علماء القرآن نفسهم على دراية أن المفسر لكي يفهم الآيات عليه أن يكون مطلعا على الوقائع التي سببت نزول هذه الآيات فكيف إذن لهم أن يهملوا دور الواقع في تشكيل النص؟ على الرغم من أن علماء القرآن أقروا بأن القرآن نزل منجما، إلا أن المشركين لم يصدقوا ذلك وشككوا في هذا الأمر خصوصا وأن كل الكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين نزلت دفعة واحدة وعلى هذا الأساس حمل علماء الكلام مهمة الرّد عليهم وتبرير لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ومن اهم التبريرات المقدمة هو أنه بما ان الأسلوب المعتمد آنذاك هو الشفاهة فإن الله سبحانه وتعالى حين أنزل القرآن راعى شخصية المستقبل الأول لأن النص طويل ولا يمكن مراعاة حال شخصية المخاطبين أيضا وفي هذا الصدد يقول أبو زيد: "إن مراعاة حال المتلقي ليست مجرد مراعاة لعوامل شخصية ذاتية بقدر ما هي مراعاة الحالة عامة يدخل فيها المتلقي الأول جنبا إلى جنب مع المخاطبين بالنص"[1].

وعلى هذا الأساس يبرز لنا أبو زيد علة التنجيم مع التأكيد على المخاطبين الموجه النص إليهم ولذا يجب مراعاة أحوالهم من طرف المُرسل (الله). إذن بما أنّ النص جاء معبرا عن الواقع هذا ما يبرر أنه جاء منجما.

من خلال أسباب النزول وضح لنا أن النص هو نتاج الثقافة التي ساعدت في تشكيله ذلك أن النص يعبر عن الإستمرارية والحركية لأنّه بكل بساطة يعبر عن صيغة الماضي والحاضر والمستقبل إذن انطلاقا من هذا كله يؤكد أبو زيد على العلاقة الجدلية بين النص والواقع. إذ يجب ربط النص بالواقع بحيث لا يجب الوقوف على ظاهر النص وإنّما ينبغي تأويله، فيجب أن نتعامل مع النص بعيدا عن مصدره الإلهي لأنّه وجد في بيئة محددة وواقع بعينه كما أنه نزل بلغة لها قواعد إذن انطلاقا من هذا كله يجب اخضاعه لمنهج التحليل.[2]

وعليه الموقف الأصح من أسباب النزول هو موقف الفقهاء والأصوليين من خلال مناقشتهم للحكمة من وراء التنجيم وكذا اهميته وضرورته في استخلاص دلالة النص، ذلك العلم بأسباب النزول الغرض الأساسي منه هو فهم النص والولوج إلى دلالته، وهذا ما وضحه نصر في قوله: "إن معرفة أسباب النزول ليست مجرد ولع برصد

[1] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 98.
[2] المصدر نفسه، ص 97.

الحقائق التاريخية التي تشكل النص، بل تستهدف هذه المعرفة فهم النص واستخراج دلالته"[1].

ومن هنا يبرر أبو زيد القراءة الرمزية للنصوص الدينية. معنى هذا أن القرآن جاء مخاطبا الناس حسب تصوراتهم وواقعهم ذلك أن القصص التي وردت في النص القرآني كانت جزءا من الواقع الثقافي للمعاصرين له.

لهذا اعتبر أبو زيد ان عدم التفرقة بين ما هو تاريخي وما هو دائم ومستمر في دلالة النصوص الدينية يؤدي إلى الوقوع في الكثير من العثرات والمتاهات، لهذا ميز لنا بين نمطين من الدلالة، النمط الخاص: المتصل بالدلالة التي تتجه مباشرة إلى الواقع الثقافي والتاريخي لإنتاج النص، النمط العام: متصل بالجانب الحي المستمر القابل للتجدد والتغير انطلاقا من القارئ وحاجاته والعصر ومتطلباته.[2]

إذن من خلال تمييز أبو زيد بين هذين النمطين من الدلالة يمكن القول أن هناك أجزاء من النص سقطت بحكم التاريخ وأصبحت شاهدا تاريخيا، أي أنها تحولت من مجال الدلالة الحية المباشرة إلى مجال الشاهد التاريخي، مثال ذلك تحول آيات الرق والأحكام المتعلقة بها إلى آيات للعبرة بعد زوال نظام الرق من حياتنا.

كما يقر ويؤكد أبو زيد أن ترتيب القرآن الحالي ليس هو ترتيب النزول، فترتيب سور القرآن كان ناتجا عن ظروف اجتماعية وسياسية لأن القرآن جاء لحل مشاكل كانت موجودة آنذاك مثال ذلك قضية الربا وتحريمها كان انطلاقا من استغلال الأثرياء للفقراء.[3]

خلاصة القول إن معرفة أسباب النزول هي التي من خلالها يمكن للمفسر فهم النص القرآني هذا من جهة ومن جهة أخرى الكشف عن دلالته، ومن ثم تجاوز أسباب النزول من شأنه القضاء على النص واهدار بعده الثقافي، ذلك أن العلم بأسباب النزول يجعل من النص القرآني مواكبا لحركة الواقع.

5. الناسخ والمنسوخ:

[1] المصدر نفسه، ص 102.

[2] أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مصدر سابق، ص 209

[3] أبو زيد، نصر حامد ونيلسون، استر، صوت من المنفى تأملات في الإسلام، مصدر سابق، ص 165.

إن هذا العلم شأنه شأن أسباب النزول اعتمد عليه أبو زيد لتوضيح البعد التاريخي للنص القرآني. وهنا تجدر الإشارة إلى ارتباط هذين العلمين واتصالهما ذلك أن النسخ قائم على معرفة تاريخ نزول الآيات الداخلة في النسخ، خاصة وأن سور القرآن تعتمد على ترتيب التلاوة لا ترتيب النزول ممّا يستلزم ضرورة معرفة أسباب النزول. يعرف أبوزيد النسخ بأنه إبدال نص بنص مع بقاء النصين وهذا التعريف كان استنادا على ما ورد عند علماء القرآن.[1]

لكن السؤال المطروح هو: ما هي وظيفة النسخ؟ لأنه حسب ابو زيد لا يمكن تحديد انماط النسخ دون معرفة وظيفته.

وظيفة النسخ هي التدرج والتسيير في التشريع نظرا لمراعاة متطلبات الواقع من قبل الله ذلك أن جل كتب القرآن والتفسير تثبت مسألة النسخ في القرآن الكريم، بل وتؤكد على ضرورته وأهميته ذلك أن التدرج في التشريع أهم خاصية استند عليها القرآن من خلال النسخ ويمكن هنا التوضيح أن نستأنس بمثال تحريم الخمر الذي لم يأتي الحكم فيه مطلقا بل حرم بداية على المصلين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء، 43)، وبعد ذلك جاء الحكم بالتحريم المطلق ناسخا للحكم الأول في سورة المائدة الآية 90 بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فالتدرج هنا الغاية منه مراعاة مصالح العباد لأن الدّين جاء في مرحلة كان الناس غارقين في الشهوات وعبادة الأوثان...إلخ

وهنا يقر أبو زيد أن الإزالة التامة للنص المنسوخ تتعارض مع وظيفة النسخ التي هي التسيير والتدرج في التشريع مما يستلزم بقاء النصوص المنسوخة إلى جانب النصوص الناسخة يعد أمرا ضروريا.[2]

بعد تحديد وظيفة النسخ، ما هي أنماطه؟

استهل أبو زيد هذه النقطة انطلاقا من السؤال الثاني: هل يجوز أن ننسخ نصوص من القرآن بنصوص من السنة؟ وهنا تباينت الآراء واختلف العلماء بين مؤيدين ومعارضين واتجاه ثالث وفق بين القرآن والسنة كما ذهب إلى ذلك الشافعي، وكلّ اتجاه

[1] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 120.
[2] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 122 - 123.

حاول تبرير موقفه، فالمؤيدين القائلين بأن القرآن ينسخ بالسنة استدلوا بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىَ﴾، أما المعارضين القائلين باستحالة نسخ القرآن بالسنة، فالقرآن لا ينسخ إلا بالقرآن استدلوا بقوله تعالي:﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ فلا يكون مثل القرآن وخير منه إلا القرآن، أما الموقف الثالث الذي جمع بينهما فهو أقرب المواقف إلى سياق النص من منظور أبو زيد فنجد أنه أيد موقف الشافعي ويظهر هذا جليا في قوله: "السنة الصحيحة الموحى بها تفسير القرآن وتوضحه لكنها لا تلغي أحكامه"، وعلى الرغم من أنّ أبو زيد في هذه النقطة يحذر من التسوية بين القرآن والسنة إلا أنه لا يمكن تجاوزهما تماما.[1]

وهنا يورد لنا التصنيفات التي حددّها العلماء للآيات الناسخة والمنسوخة انطلاقا من ثلاثة أنماط:

1. الآيات التي نسخت تلاوتها وبقي حكمها؛
2. الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها؛
3. الآيات التي نسخ حكمها وتلاوتها معا.

إلاّ أنّ أبو زيد يحصر مفهوم النسخ في النمط الثاني وهو الآيات التي نسخ حكمها وبقيت تلاوتها[2]، وشأنه هنا شأن الكثير من العلماء.

وقد تطرق أيضا أبو زيد من خلال اجتهاداته إلى قضية النسخ وأزلية النص على اعتبار أن القول بالنسخ في النص يؤدي بنا إلى التعارض مع أزلية النص الموجود في اللوح المحفوظ. فيقول معترضا: "إن نزول الآيات المثبتة في اللوح المحفوظ ثم نسخها وإزالتها من القرآن المتلو ينفي هذه الأبدية المفترضة الموهوبة، ويجب أن نفهم الآيات الدالة على ذلك فهما غير حرفي، ولا يمكن للمفسر القديم التمسك بالمقولتين معا"[3].

ينتهي أبو زيد في هذه النقطة إلى فكرة أساسية مفادها أن تناقض آراء العلماء الناتج عن تعدد المرويات أدى إلى التشكيك في تصورهم الأزلي للنص في اللوح المحفوظ ليس هذا فحسب بل أدّى إلى القضاء على مفهوم النص ذاته.[4]

---

[1] المصدر نفسه، ص 123-124.

[2] المصدر نفسه، ص 125.

[3] أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، مصدر سابق، ص 131.

[4] المصدر نفسه، ص 134.

وآخرا وليس أخيرا يعتبر أبو زيد النسخ أكبر دليل على جدلية العلاقة بين الوحي والواقع.

خاتمة:

وفي الأخير لا يسعنا سوى القول أن هذه القضايا الثلاث التي تطرق لها أبو زيد (المكي والمدني، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ) هي قضايا تؤكد بوضوح علاقة النص بالواقع وكلها قضايا متصلة ببعضها البعض خاصة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ على اعتبار أنهما قضية واحدة من منظوره أي يمثلان نوع واحد من انواع علوم القرآن، فالنسخ له علاقة متبينة بسبب النزول نظرا للأحداث التي تطرأ على الواقع، وعلى هذا الأساس يتجسد البعد التاريخي للنص القرآني عند نصر حامد أبو زيد.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

1. .أبو زيد، نصر حامد ونيلسون، استر، صوت من المنفى تأملات في الإسلام، ترجمة: نهى هادي، الكتب خان للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 2015.
2. أبو زيد، نصر حامد، النص، السلطة الحقيقة - الفكر الديني بين إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 1995.
3. أبو زيد، نصر حامد، مفهوم النص- دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب، ط:1، 2000.
4. أبو زيد، نصر حامد، نقد الخطاب الديني، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط:4، 2003.
5. العمري، مرزق، إشكالية تاريخية النص الديني في الخطاب الحداثي الغربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، ط:1، 2012، ص 182.
6. القزني، خالد، القراءة التأويلية لدى نصر حامد أبو زيد، الجمعية العلمية السعودية للدراسات الفكرية المعاصرة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1435هـ.